(١٣) وولت ويتمان : أغنية لنفسى

بقلم : جيمس ا . ميللر (الابن)

بالقرب من بداية تحفة وولت ويتمان « أوراق العشب » بيتان يلخصان إنجاز ويتمان الخاص الذى يعد محدوداً لكنه حيوى فى الوقت نفسه :

« أنا نفسى لن أكتب سوى كلمة أوكلمتين توحيان بالمستقبل .

لن أتقدم سوى لحظة فقط ، ثم أعود أدراجى مسرعاً إلى الظلام ! »

ومن المؤكد أنه لم يحاول أحد حتى الآن تشخيص الذى يقصده « بالكلمة أو الكلمتين الموحيتين » ، وطالما أننا الآن المستقبل الذى قدم إليه كلماته المحدودة فربما يكون من الحتمى أن نقرأ كتابه بتمعن بحثاً عن كل المفاتيح التى يحتوى عليها، لكن يجب أن نركز أعيننا ببساطة على الكتاب . لقد قال ويتمان أيضاً :

« إنى أمنح نفسى إلى الطين الذى ينمو فى العشب الذى أعشقه .

وإذا أردت رؤيتى (ثانية) فما عليك سوى النظر تحت نعليك ! »

ولقد بذلت محاولات كثيرة لوضع ويتمان فى خانة معينة على سبيل تحديده وتصنيفه بحرص وبدقة : فسمى « شاعر الديمقراطية » ، و« شاعر العلم » و« شاعر العقيدة » ، و« شاعر الجنس » ، و« شاعر الصوفية » ، و« شاعر المادية » .

والحقيقة المدهشة أن الناس تقطف أبياتاً من كتابه كالإنجيل على سبيل تقديم الدليل على أحد هذه المسميات . ويرجع هذا التعدد إلى ما قاله :

« هل أناقض نفسى ؟

حسناً . . إذا فأنا أناقض نفسى .

(فأنا ضخم وأحتوى كل هذه الأبعاد !)

هناك مسئولية على الشاعر أكثر مما يبدو لأول وهلة فى هذه الفقرة : إن ويتمان يستطيع أن يحتوى المتناقضات بسهولة ، لكنه كان فى منتهى الصرامة فى إصراره على التناغم مع الذات . لقد عبر عن مفاهيم متصارعة نظريًّا لكى يظل مخلصاً لرؤيته الداخلية .

إن الرؤية عند ويتمان ظلت ثابتة محددة عبر شبابه وشيخوخته . فى نشوته ويأسه – كانت رؤية الذات الإنسانية التى لم يفسدها شىء ، كانت بمثابة الإحساس القوى الذى لا يهتز بالشخصية الفردية التى تعد أسمى الممتلكات المجزية فى الحياة . إن البيت الافتتاحى فى « أوراق العشب » يعبر عن ذلك بوضوح وبساطة : « لذات الإنسان أغنى ، إنها إنسان بسيط منفصل مستقل ! »

وعندما جعل ويتمان مفهوم الذات الفردية الأساس الذى أقام عليه بناء شعره البديع – فإنه بهذا قبل أعظم تحدٍّ شعرى فى عصره : فقبل أن يولد ويتمان بأقل من خمسين عاماً كانت أمريكا قد أعلنت استقلالها ، لكن على الرغم من أنها فازت بحريتها فإنها لم تكن قد اكتشفت روحها بعد . فالشعراء الذين حملقوا فى أراضيها وآفاقها منتشين بها . . نظروا إليها بعين أجنبية ، وتكلموا بصوت صادر عن الماضى ، أما ويتمان فقد رأى بعينيه وتكلم باللغة الحديثة .

وكان البحث عن الذات الأمريكية قد بدأ سنوات عدة من قبل ، وربما مع أول مستوطن جاء إلى برية العالم الجديد لا يطارده سوى حلمه الخاص به .

فى عام ١٧٨٢ كتب ميشيل جيلوم سان جان دى كريفيكير : « إن الأمريكى إنسان جديد يسلك طبقاً لمبادئ جديدة ، ومن ثم يتحتم عليه أن يكون ذا أفكار جديدة ، وأن يكون آراء جديدة » . لكن الأفكار والآراء القديمة النابعة من أعماق القرن التاسع عشر تمكنت من الالتصاق بالأمة الجديدة . وقد لاحظ ويتمان فى افتتاحية المقدمة التى كتبها لطبعة عام ١٨٥٥ من ديوانه « أوراق العشب » : « إن تغيير الجلد مازال ملتصقاً بالآراء والسلوك والأدب فى حين أن الحياة التى تمد هذه العناصر بما تحتاج إليه قد تطورت إلى حياة جديدة لأشكال جديدة ! »

وقد استسهل الشاعر التقليدى فى أيام ويتمان أن يعيد صياغة المفاهيم القديمة الواردة من الخارج ، وأن يؤكد بأسلوب جديد مفاهيم الماضى البالية التى تأكدت من قبل : فنجد أن قصيدة وليم كالين بريانت « إلى الشلال » ، أو قصيدة هنرى وادزورث لونجفيلو « مزمور الحياة » ، أو قصيدة أوليفر وندل هولمز « القوقعة البحرية » ، لم تحاول أن تمس المعتقدات

الأثيرة عند أحد ، أو تثير حساسياته الرقيقة : قال ويتمان عن الماضى :

« بعد النظر إليه لبرهة طويلة – تخلصت منه .

فأنا أقف فى مكانى ومعى يومى هنا ! »

وكان اختيار ويتمان متعمداً ؛ فقد كان فى إمكانه كتابة الأشعار الجميلة المسرفة فى العاطفة والتى كانت مفضلة فى عصره كما تثبت قصيدة « آه يازعيمى ، يا زعيمى ! » وإذا كان قد قنع فقط بتثبيت عينيه المحملقتين على الماضى – فإن إنتاجه لم يكن ليتعدى ديوان الشعر التقليدى المحترم سواء فى الفكرة أو الشكل ولكان قد نسى منذ مدة طويلة . وإذا كان قد قنع فقط بالتأمل فى المستقبل لكان قد أغرق اهتمام القارئ فى جلاميد من التجريدات والمثاليات !

وكما هى الحال فقد اختار ويتمان أن ينظر بعمق فى طبيعته ولحظته الخاصة ، وذلك لكى يصل إلى اكتشافات عميقة فى مجال الذات والروح ، ولكى يجسد اكتشافاته دراميًّا فى لغة تنبض بالحيوية وتزخر بالحياة الخاصة بها . وكان أساس منهجه بسيطاً ؛ كما أوضح فى نهاية حياته الأدبية فى مقالته « نظرة إلى الخلف عبر طرق المسافرين » عندما قال : « كان هذا شعوراً أو طموحاً للنطق والتعبير الأمين فى شكل أدبى أو شعرى ، طموحاً يخلو تماماً من النزول عن شخصيتى المادية والعاطفية والأخلاقية والفكرية والجمالية الخاصة بى ، وفى قلب هذا كنت أقيس الروح الراهنة وحقائق أيامها المعاصرة ، وينطبق هذا على أمريكا المعاصرة أيضاً » .

وباختصار افترض ويتمان أنه لكى يكتشف نفسه كان عليه أن يكتشف أمريكا . ووراء هذا الافتراض جاء إدراكه بأن أمريكا ذاتها لم توجد فى مجال الجغرافيا – أى فى جبالها وبحيراتها ، فى سهولها وسواحلها ؛ ولكن فى داخل إنسانها الديمقراطى الجديد . وقد رأى ويتمان فى نفسه هذا الرجل ، وتركز إيمانه البسيط فى اكتشاف قصور التيه التى يحتوى عليها كيانه ، وكان عليه أن يكتشف هناك أسرار الروح الأمريكية . وبالإضافة إلى البيت الافتتاحى فى « أوراق العشب » : « لذات الإنسان أغنى ، إنها إنسان بسيط منفصل مستقل » ، قال : « لكننى أنطق بكلمة الديمقراطية ، كلمة الحشد الجامع » .

وإذا كانت « أوراق العشب » بمثابة ملحمة أمريكا – فإن بطلها الملحمى هو وولت ويتمان كممثل للإنسان الديمقراطى . وينعكس شكل القصيدة المتمثل فى الشعر الحر فى أبياتها الطويلة المتدفقة مبلوراً بذلك مفهوم الحرية الأساس فى الديوان ، وبتحطيم ويتمان لقيود الشكل القائم

على الفقرات والنمط الذى لا يستغنى عن البحور – فإنه يؤكد الحرية التى اكتشفها فى نفسه وفى وطنه .

وعندما أدخل فى شعره لغة حرة وسهلة تماماً مثل قوافيه وأوزانه – فإنه أثبت بذلك القيم الشعرية التى فى لغة الشارع والسوق .

وتحتوى لغة ويتمان على الحياة بنفسها الحار وعرقها المتصبب فى اللحظة ذاتها ، وتومض بلحظات مضيئة فى نفس حيوية ومضات البرق فوق البرارى الأمريكية ، إنه يتساءل :

« ماذا يسرى هناك ؟ رغبة عارمة غامضة عارية !
كيف أستخلص قوتى من لحم البقر الذى ألتهمه ؟
قوى البنيان كالحصان ، عاطفى ، معتز بنفسه ، متكهرب
هنا نقف معاً – أنا وهذا السر ! » .

ثم قال :

« مقدس أنا من الداخل والخارج . وأجعل كل ما ألمسه وما يلمسنى مقدساً .
إن الرائحة المنبعثة من تحت الإبط لأزكى من أية صلاة ! »

ويقول أيضاً :

« وأنت هناك أيها العنين ذو الركب المهتزة
افتح فكيك الملفوفين لكى أنفخ الشجاعة داخلك
وانشر راحتيك وارفع غطاء جيوبك
فأنا لا ينكرنى أحد ، لأنى أفرض نفسى ، ولدى الوافر وما يفيض
وكل ما أمتلكه أمنحك إياه ! »

إن اللغة المدهشة التى يستخدمها ويتمان فى شعره لغة غير شعرية بالضرورة ، أو حتى مضادة للشعر ، وذلك فى عصر كانت فيه اللغة الشعرية قد جفت وتيبست ؛ فقد تدفقت لغة ويتمان ليس على سبيل الصدفة أو الجهل ، بل من خلال إيمان وثيق بديمقراطية اللغة .

وفى مقالة هامة صغيرة بعنوان « العامية فى أمريكا » كتب ويتمان : « علينا أن نتذكر أن اللغة ليست بناء تجريدياً من أجل المتعلمين أو مؤلفى القاموس ، إنها شىء ينبع من العمل ومن الاحتياجات والروابط والمباهج والعواطف والأذواق التى رسختها أجيال طويلة ، من الإنسانية ، وكانت القواعد التى نهضت عليها عريضة ومنخفضة وملتصقة بالأرض ! إن

صيغها النهائية لا تقررها سوى الجماهير ، أى الناس الذين يدركون كل ما هو مجسد ملموس ، والذين يعرفون عمليا الأرض والبحر الحقيقيين . وبتعريف العامية فإن ويتمان شرح عمليًّا المظهر والجوهر اللغويين لشعره هو . كتب يقول : «إن العامية تعتبر إلى حد كبير العنصر الخصب الجامح تحت كل الكلمات والجمل ، ووراء كل الشعر ، فهى تثبت وجود معيار معين مستمر خاص بها ، كما تشكل عنصر الاحتجاج والمعارضة فى الحديث . . . فإذا اعتبرنا اللغة إذن مملكة جبارة بشكل ما فإنه لا مانع من أن يقتحم قاعة الاستماع الملكية الجليلة شخص مثل واحد من مهرجى شكسبير ، ويسيطر على الموقف هناك بأدائه دوراً حتى فى أكثر المراسم جلالاً ووقاراً» . وكانت لغة ويتمان مثل المهرج فى البلاط : فهى غير متوقعة وغير مهذبة ، وتبدو فى بعض الأحيان وقحة وغير مؤدبة ! وقد استطاع أن يقول على سبيل التبرير : «إننى أرفع عقيرتى بالصرخة الهمجية فوق أسطح العالم ! »

وقد صدمت صرخة ويتمان الهمجية جمهوره المعاصر ، لكن شاعر اليوم يستمتع بالحرية اللغوية التى كان ويتمان رائداً لها : كارل ساندبرج وشعراء التمرد والرفض من أمثال آلن جنزبرج ولورانس فرلينجيتى ، وأيضاً كارل شابيرو فى كتابه الحديث «الشاعر البورجوازى» – هؤلاء هم الكتاب القلائل الذين استمتعوا بحرية اللغة التى نادى بها ويتمان بمنتهى القوة . ويعود ويتمان ليبدو فى كثير من الأقنعة فى أدب اليوم سواء فى داخل أمريكا أو فى خارجها .

ولكن مع كل التجريب الذى قام به ويتمان فى لغة الشعر – تبدو هناك بعض الثغرات القليلة الملحوظة فى ذوقه . ومع كل الاتجاهات التقدمية التى سادت الحرية الأدبية منذ أن كتب – فإننا نتوقع أن نجده الآن مهذباً رسميًّا من طراز قديم إلى حد ما ؛ كما نجد جيمس راسل لويل ولونجفيلو أحياناً ، ولكن على النقيض من هذا فإن لغته تبدو لآذاننا حديثة وطبيعية ، كما يبدو أسلوبه فى استعراض الألفاظ الموحية سلساً ومرناً .

ولعل الأكثر أهمية من أسلوبه الصامد هو المعنى الحديث الذى يميز مضمونه والذى يتمثل فى التزامه وانتمائه الملح إلى الذات الإنسانية ! إن نقطة الانطلاق المعاصرة السائدة للشاعر تتركز فى الإحساس بالغربة واليأس الذى تمثل فى الشلل الروحى الذى أصاب ج . ألفريد بروفروك فى قصيدة (ت . س . إليوت) ومازال مرض العصر مجهولاً بالنسبة لثقافة الجماهير ؛ إذ إن الفرد قد فقد إنسانيته وتحول إلى مجرد رقم فى إحصائية !

وبالنسبة للإنسان الذى يشعر بالغثيان والخواء داخله ، خواء مصدره موقعه ككائن حى فى

منتصف الجاذبية – فإنه لا دواء مضاد لهذا أفضل من اتباعه لمثال ويتمان فى احتفاله الكبير بفردية الإنسان : أى فى قصيدته «أغنية لنفسى» :

«أمضى الوقت فى دعوة روحى .

لكى أضطجع وأتسكع بحريتى مراقباً عشب الصيف»

فى هذه القصيدة خطط ويتمان عمداً للقاء غرامى وللممارسة علاقة كاملة مع روحه . وكانت العلاقة حارة عاطفيا وطويلة زمنيًّا ، وأثمرت أطفالاً روحيين لا يمكن إنكارهم أبداً . فقد تساءل : «أن أكون فى أى شكل ، هل يعنى هذا كثيراً ؟ ثم صاح : «هل هذه إذن لمسة ؟ لمسة أصابتنى برعشة جعلت منى إنساناً جديداً ؟»

إن «أغنية لنفسى» واحدة من القصائد الصوفية العظيمة فى اللغة الإنجليزية ، لكنها أيضاً (على سبيل التناقض) فى الوقت نفسه واحدة من أشد القصائد– التى كتبت– إحساساً بالتجسد المادى المقصود من الشاعر . فقد كتب ويتمان بالقرب من افتتاحية قصيدته الطويلة :

«هذه القوة الدافعة ، الدافعة ، الدافعة .

إنها دائماً الدفعة الخلاقة المولدة للعالم .

ومن الوجود المعتم تتقدم النظائر المقابلة فهناك دائماً .

المادة والوفرة ، هناك دائماً الجنس !

دائماً بؤرة الفردية ، دائمة التميز ، ودائماً ، تتوالد الحياة ! »

هذه النزعة الجنسية ، وهذا التجسيد ، وهذه المادية الأساس – تشكل القاعدة الخفية والهيكل العظمى لهذه القصيدة المنطلقة إلى أجواز الفضاء ، إنها مرساة للروح التى تبدو مستعدة فى بعض الأحيان للانطلاق والرحيل بلا عودة .

وقصيدة «أغنية لنفسى» ليست – كما كان الظن بها ذات مرة – تدفقاً عفويًّا فوضويًّا لمواد شعرية لم تهضم بعد ، إنها القصيدة التى كتبت متقدمة على عصرها ، وتتصل من ناحية البناء – بقصيدة لونجفيلو السردية «هاياواثا» التى نشرت أيضاً فى عام ١٨٥٥ بدرجة أقل من اتصالها بقصائد حديثة مثل «الأرض الخراب» لـ (ت . س . إليوت) أو «الأغانى الطويلة» (لإيزرا باوند) أو «باترسون» (لوليم كارلوس وليامز) فمن ناحية البناء تبدو «أغنية لنفسى» قصيدة ذات رؤية وتمثل دراما الشاعر نفسه عندما يسبح فى غيبوبته الصوفية ، ويستمر فى رحلته الصوفية حتى يستلقى مجهداً فى النهاية بسبب حالة الوجد الصوفى التى مر بها . والرحلة التى يقوم

بها رحلة اكتشافات يقدم عنها تقريراً كلما تقدمت به .

وهذا الهيكل المميز لأسلوب سرد التجربة الصوفية يشكل إطار القصيدة الذى يمكن الشاعر من تعليق كمية هائلة من العواطف والأحاسيس ، ومن العقائد والأفكار ، ومن المتغيرات والثوابت ، ومن المقترحات والإيحاءات .

تتكون «أغنية لنفسى» من اثنين وخمسين قسماً – وقد رأى بعض النقاد أن هذه إشارة محددة إلى عنصر الزمن : أى إلى الاثنين والخمسين أسبوعاً التى تتكون منها السنة – وفى البداية المبكرة للقصيدة فى القسم الخامس – يدخل الشاعر إلى عتبة النشوة الصوفية بعناق روحه عناقاً كاملاً بمعنى الكلمة :

«أسبح مع نفسى فوق العشب ، أقلقل ما يقف فى زورك
لا أريد كلمات أو قوافى ، ولا عادات أو محاضرات ، ولا حتى
أفضل الأشياء !
فقط أريد الاهتزازة التى أعشقها ، وطنين صوتك المحبوس !
أذكر ذات مرة كيف اضطجعنا فى ذلك الصباح الصيفى الشفاف
كيف أرحت رأسك على أردافى وبرقة التصقت بى
فانتزعت القميص من عظام صدرى ، وغمست لسانك فى قلبى العارى .
ووصلت حتى أحسست بلحيتى ، ووصلت حتى أمسكت بقدمى ! »

إن الإيحاء بهذا الشلل المنتشى لا يمكن أى أحد ألا يلحظه فى هذه الأبيات التى تمزج العنصر المادى بالروحى بأسلوب مذهل لم نعرف له مثيلاً . فسرعان ما تبعتها أبيات من نوع مختلف ، أبيات زاخرة بالبصيرة الثاقبة واليقين الواثق :

«سرعان ما نهض وانتشر حولى السلام والمعرفة
اللذان يفوقان كل الجدل فوق الأرض
فأنا أعرف أن يد الله وعد لى وليدى
وأعرف أن روح الله هى توءم روحى .
وأن كل البشر الذين ولدوا إخوتى -أيضاً .
كذلك النساء أخواتى والعشاق !
وأن جوهر الخلق هو الحب ! » . .

فى القسم الخامس من «أغنية لنفسى» يبدو ويتمان مجسداً نفسه بأسلوب درامى وهى تلج هذه الحالة الصوفية ، إنها حالة سرعان ما تأتى بالمعرفة واليقين بالكون والعالم . والجزء الأعظم المتبقى (سبعة وأربعون قسماً من اثنين وخمسين من «أغنية لنفسى» – يتحول ليصبح رحلة ما فى داخل المعرفة ، رحلة اكتسبت الدفعة الأولى من هذا القسم الخامس . إن طريق المعرفة ليس مستقيماً ، بل هو دائرى ومتزايد الاتساع ، ليس مجرد لمحة واحدة من البصيرة الثاقبة ، بل سلسلة من الاكتشافات اللانهائية ، وليس مجرد ممر مقصور على قلة أرستقراطية ، بل هو طريق عام مفتوح لكل الناس على قدم المساواة .

وإذا توغلنا فى القصيدة إلى القسم السابع عشر فسنجد الشاعر وهو يتوقف فى رحلته لكى يصيح قائلاً :

«هذه هى حقا أفكار كل البشر فى كل العصور والبقاع
إننى لا أحس بأصالتها تسرى داخلى
فإذا لم تكن جزءاً منك كما هى جزء منى ، فهى لا شىء !
أو أقل من اللاشىء ! .
إذا لم تكن اللغز وحل اللغز فهى لا شىء !
وإذا لم تكن لصيقة كما هى نائية فهى لا شىء ! »

ونحن لا نتوغل بعيداً فى «أغنية لنفسى» بدون أن ندرك أننا – كقراء – جزء من العنصر الدرامى فى القصيدة. هناك شخصيتان رئيستان : «الأنا والأنت» ومع اطراد القصيدة تنمو الألفة بين الشاعر والقارئ – الأنا والأنت – بحيث تؤكد فى نهاية القصيدة كمالها المطلق بأسلوب محير ! إنها تبدو كما لو كان المتحدث فى القصيدة – وولت ويتمان – سابحاً فى بحر الكلمات الذى يصنع منه التجربة الصوفية والقصيدة فى الوقت نفسه ، ومن حين لآخر يطفو على السطح من الأعماق لكى يلقى بنظرة على القارئ القابع على الشاطئ ويجعله يعرف أعمق اكتشافاته ، أو على سبيل تغيير الاستعارات يبدو الشاعر محلقاً فى طيرانه المنتشى لكى يعود بأسرع ما يمكن إلى جوار القارئ ويقدم إليه تقريراً عن الأعاجيب التى شاهدها فى رؤياه .

ولكن سواء تمثلت التجربة فى الغطس أو الانطلاق فإن «أغنية لنفسى» تبدو قصيدة نرجسية ترقب أقل حركة لنفس الشاعر وذاته ، تلاحظ سلوكها ، وتقدم التقارير عن حالتها الصحية ونظرتها الثاقبة إلى القارئ من فترة لأخرى .

وموجز القول أنها قصيدة ترقب نفسها وهى تتخذ ملامحها وصيغتها المكتوبة .

فى القسم الثالث والثلاثين يبدو الشاعر وكأنه بلغ مرحلة حيوية فى رحلته داخل أرجاء المعرفة :

« المسافة والزمن ! الآن أرى أن ظنى كان حقيقة
ما ظننته وأنا أسرى فوق العشب
وما ظننته فى أثناء رقادى وحيداً فى سريرى
مرة أخرى وأنا أسير على الشاطئ تحت
نجوم الصباح الشاحبة
تخلت عنى قيودى وأثقالى ، واستراح كوعى فى فجوات البحر
ارتديت الجبال ، وغطيت القارات براحتى
ونهضت واقفاً لاستقبال رؤياى ! »

هنا فى منتصف « أغنية لنفسى » عند نقطة فى منتصف الرحلة اخترق الشاعر الحواجز ، المسافة والزمن ، وهى التى فصلته عن المعرفة المطلقة التى يبحث عنها . هذه الأبيات بإعلانها المتوثب للانطلاق والحرية – تفتتح مرحلة جديدة من الرحلة الصوفية ، مرحلة تؤدى فى النهاية إلى اكتشاف وثقة ويقين لا يبارى .

مثل هذا الاكتشاف والرؤية الحدسية تقودان الشاعر ابتداءً من القسم الرابع والأربعين لكى يقدم نوعاً من الموجز يكثف فيه الوصف الرمزى لمعرفته . يقول :

« إنه حان الوقت لأشرح نفسى – دعنا نقف
وما أعرفه سأكشف النقاب عنه
سأبحر بكل الرجال والنساء معى إلى المجهول
إن الساعة تدق مشيرة إلى اللحظة – لكن
علام تدل الأبدية ؟ »

أما الأقسام الباقية من « أغنية لنفسى » فهى تنويع مسهب على النظرات الثاقبة التى تجمعت فى أثناء الرحلة الصوفية ، مثل هذه المعرفة هى النوع الذى يشعر به الإنسان فى عظامه أكثر من أن يدركه بعقله . ومعرفة كهذه لا يمكن قياسها أو تحديدها أو صبها بدقة داخل تعريفات مناسبة ! حقًّا إنه يتحتم على كل إنسان أن يحصل لنفسه على مثل هذه المعرفة فى أثناء رحلته

الخاصة به . عندئذ يستطيع أن يصيح مع الشاعر قائلاً : «إنى أعرف أننى أمتلك أفضل الوقت والمسافة ، وهما عنصران لا يمكن قياسهما أبداً ولن يتم ذلك مطلقاً» .

وكما فى القسم الخامس من «أغنية لنفسى» فإن الشاعر يدخل فى الغيبوبة الصوفية من خلال علاقة حميمة مع نفسه ، وهكذا فى القسم الخمسين يخرج من رحلته الصوفية محققاً ذاته برغم الإرهاق الذى مر به :

«هناك يكمن فى داخلى – لا أعرف ما هو – لكنى
أعرف أنه فى داخلى
يلتوى متصبباً منه العرق – ويشعر جسدى بالهدوء والرطوبة
أنام – أنام طويلاً
أنا لا أعرف هذا الشىء – إنه بلا اسم – إنه كلمة لم تنطق
إنها ليست فى أى قاموس ، أو نطق ، أو رمز !
إنها شىء يتأرجح أكثر من الأرض التى أتأرجح عليها !
بالنسبة لها فإن الخلق هو الصديق الذى يوقظنى بأحضانه
ربما أستطيع أن أقول أكثر من هذا . لكنها مجرد خطوط عامة !
إننى أدافع عن إخوتى وأخواتى .
هل ترون أيها الإخوة والأخوات ؟
إنها ليست الاضطراب أو الموت ، إنها الشكل والاتحاد والخطة –
إنها حياة أبدية – إنها السعادة .»

تبدو كل ملامح الغيبوبة الصوفية العميقة واضحة ، لقد أحس الشاعر «بالالتواء وتصبب العرق» ، وأخيراً أصبح «هادئاً رطباً» وفى حاجة إلى النوم الطويل الذى يستعيد به قواه ويعود به إلى الواقع . إنها الحالة الجثمانية لرجل تمت تصفيته عاطفيًّا وروحيًّا من خلال قفزات الخيال المترنحة ، ومعاناة الروح القاسية .

وبالإضافة إلى ذلك فهو يخرج من التجربة الصوفية بحثاً عن اللغة التى يمكن أن تلمح إلى ما اكتشفه ، إنها لغة «ليست فى أى قاموس أو نطق أو رمز» . والكلمات التى يضرب على وترها فى نهاية بحثه عنها ، وهى الشكل والاتحاد والخطة والحياة الأبدية والسعادة -- كلها نسخ باهتة للحقيقة ، للحقيقة الواقعة التى لا يمكن التعبير عنها ، والتى لا تدركها سوى أعماق العقل

والروح التى لا تقدر اللغة على اختراقها !

هذا الإطار لتجربة صوفية أساساً – كما وصف أعلاه فى مسودة عابرة – يقوم بدور البناء الأساس لقصيدة «أغنية لنفسى» . لكن أن ننظر فقط إلى الإطار فهذا يكون بمثابة دراسة الإنسان بالنظر إلى هيكله الخارجى فقط . إن «أغنية لنفسى» قصيدة غنية فى فقراتها ذات الرقة والعذوبة والجمال النادر . هنا على سبيل المثال وصف لعلاقة حب مع الأرض :

«إننى هو الذى يسير مع الليل العذب النامى
أنادى الأرض والبحر الذى تدثر نصفه برداء الليل
أضغط بحرارة على صدر الليل العارى – أضغط بحرارة
على الليل الذى يجذبنى ويغذينى
ليل الرياح الجنوبية ، ليل النجوم الكبيرة القليلة
مازال الليل ينحنى – هذا الليل المجنون العارى فى الصيف
ابتسمى أيتها الأرض الشبقة ذات النفس الرطب
أرض الأشجار الناعسة السائلة !
أرض الشمس الراحلة ، أرض الجبال الغارقة فى الضباب
أرض تدفق البدر المقدس محاطاً بهالاته الزرقاء !
أرض الإشراق والإظلام التى تكون بقعها مد النهر
أرض السحب الرخوة الرمادية التى تبدو أكثر إشراقاً لأجلى
أيتها الأرض المضطجعة المتدفقة ، أيتها الأرض الناضجة
بتفاحها الغنى
ابتسمى فإن حبيبك قد أتى ! »

إن هذه الفقرة المدهشة من الناحية العملية قصيدة حب مهداة من الشاعر إلى العالم الذى عشقه . فهو عاشق عالمى أو كونى يستطيع أن يحتوى فى أحضانه الدنيا بأسرها بكل مناظرها المتنوعة والحسية . والأبيات إثبات منتش لمباهج إدراك الوجود الحسى فى عالم مادى ديناميكى .

وسيجد كل قارئ فقرات فى «أغنية لنفسى» تحفر نفسها بقوة فى الخيال ، وأبياتاً تقفز من الصفحة بكل قوة وحيوية تجتاحه وتسيطر عليه !

فى القسم الرابع والأربعين تبرز واحدة من أعظم الجمل التى تدور حول الفردية ، إنها تأكيد مجلجل للوحدانية والقداسة والإعجاز الذى تمتلكه الذات الإنسانية بكل فرديتها الباهرة :

« إننى قمة الأشياء الكاملة ، وسأحتوى الأشياء القادمة
تدق أقدامى فوق قمة قمم السُلَّم
وعلى كل درجة تقبع حفنة من العصور ، وحفنات أعظم
بين الدرجات
وكل الذين بأسفل رحلوا ، أما أنا فمازلت أصعد وأصعد .
ومع ارتفاع بعد ارتفاع تنحنى الأشباح خلفى
وهناك فى أسفل سافلين أرى اللاشىء الضخم لأول مرة
وأعرف أننى كنت هناك من قبل
انتظرت لا يرانى أحد ، كما نمت دائماً وسط الضباب الرخو
واستغرقنى الوقت ولم أشمئز من الكربون الكريه الرائحة
وطويلاً استغرقتنى الأحضان طويلاً طويلاً
هائلة كانت الاستعدادات من أجلى
مخلصة وصديقة كانت الأذرع التى ساعدتنى !
دارت الدوائر حول مهدى – جدفت جدفت مثل ركاب قارب مرح
ومن مجرتها جاءت النجوم إلى جانبى وسط دوائرها
أرسلت سجرها لكى يعتنى بالذى سيحتوينى
قبل أن أولد من أمى أرشدتنى الأجيال
لم يكن الرحم الذى خرجت منه بكسول ، لم يستطع شىء أن يعوقه .
من أجله اتحدت المجرة ومجرى الأفلاك
وتكومت الطبقة الطويلة البطيئة لتستريح عليها
وصبت الخضراوات الهائلة عصارتها
فالتهمتها الحيوانات الوحشية فى أفواهها مرسبة إياها
داخلها بحرص

كل القوى قد استخدمت بانتظام لكى تكمل وجودى
وتبعث البهجة داخلى
والآن على هذه البقعة أقف مع نفسى القوية الشامخة ! »

وربما كان أكثر العناصر إثارة فى هذه الفقرة قد تمثل فى الرصد المبهج للنفس فى أثناء التعرية الطبيعية لها من خلال التطور ، وذلك فى رؤية سبقت داروين فى تأكيد تطور الحياة فى العالم . وكل الطاقة والديناميكية والحيوية فى هذه الأبيات تتجمع وتنطلق لكى تشحن البيت الأخير بهذه الحياة النادرة ، وذلك عندما يأتى فى صميم البؤرة المذهلة : «والآن على هذه البقعة أقف مع نفسى القوية الشامخة ! »

هذا الاكتشاف الأساس لويتمان فى «أغنية لنفسى» أكد أن الشخصية أو الفردية الأمريكية لم تكن سوى «الفردية الجديدة» للنفس أو للذات : أى الشخص البسيط المستقل الذى يمكن أن نكونه جميعا فى المجتمع الحر ، لكن الذات التى احتفل بها ويتمان كانت كائناً يتحتم البحث عنه من خلال رحلة داخلية قديمة قدم التاريخ ذاته .

وموجز القول أنها ذات لابد أن يخلقها الخيال الصوفى . والاكتشاف متاح للجميع ، لذلك يقترح ويتمان :

«يا ابنى ، ضع على كتفيك أسمالك ، فسأفعل أنا الشىء نفسه
ودعنا نسرع الخطى من هنا
وبحملنا عصا الترحال سنبحث عن مدائن مدهشة وأمم حرة»

ومنذ عصر ويتمان اكتشف الإنسان الوسائل التى يدمر بها نفسه وكوكبه ، وكارثة مثل هذه تلقى بظلالها على حياتنا اليومية ، لكن أين الرعب فى ضياع أرض خراب تكمن خارجنا وداخلنا فى الوقت نفسه ؟ إن الدمار النووى لا يشكل رعباً إلا إذا هدد بتدمير شىء ذى قيمة . أين تلك القيمة إن لم تكن فى النفس الإنسانية التى مهما كانت ضائعة ومختبئة فى الداخل فهى رؤية لخلق خصب وإحساس متسام للحيوية البهيجة الكامنة فى الحياة . وكانت أغنية ويتمان للنفس دعوة لاستعادة هذه الممتلكات الغالية الداخلية . وربما يمكننا أن نواجه عصرنا تماماً كما فعل هو مع عصره : أى نواجهه بهدوء البال الذى يميز الرجال الذين اكتشفوا ذواتهم وذات بلادهم ، والآن على هذه البقعة نقف مع أنفسنا القوية الشامخة .

وفى نهاية «أغنية لنفسى» يلقى ويتمان بتحية الوداع إلى القارئ ،لكنها كانت بالفعل بمثابة

تحية الاستعداد للقاء الشخصى ، قال :

«ينطلق الصقر المبرقش متهماً إياى ، فهو يشكو
الفجوة بينى وبينه وتسكعى
وأنا أيضا لم يروضنى أحد ، ولا يمكن ترجمة ذاتى
إنى أرفع عقيرتى بصرختى الهمجية لتدوى فوق أسقف العالم .
إن آخر خطوة مسرعة لليوم مازالت فى انتظارى
إنها تتغنى بتشابهى مع الآخرين ، إنها حقيقة مثل
أى شىء فى الأدغال الظليلة
إنها تغرينى بولوج البخار والغسق !
إنى أرحل كالهواء ملوحاً بخصلات شعرى الأبيض للشمس الهاربة
إنى أصبّ لحمى فى دوامات الريح والماء ثم أمزجه بالصخور الزخرفية .
إنى أترك نفسى للطين الذى ينمو مع العشب الذى أعشقه
وإذا أردت رؤيتى (ثانية) فما عليك سوى النظر تحت نعليك !
ونادراً ما سوف تعرف من أنا ؟ وما أنا ؟ وماذا أعنى ؟
لكننى سأظل الصحة الجيدة بالنسبة لك برغم كل شىء
مرشحاً ومنقياً دمك !
وإذا فشلت فى العثور علىّ لأول مرة فلا تيئس
فإذا افتقدتنى فى مكان فابحث عنى فى آخر
فأنا أقف فى مكان ما فى انتظارك ! » .